المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير[1] ينقل اليا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى ابو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكّره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد ويطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما نهبه منهُ فلم يفعل به[2]. فغزا كسرى بلاد الروم في صميم الشام وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا واثرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وقامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبى اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون واقتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا رومية المدائن ووجد كل واحد بيته بدون ضعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاخبار التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحلّ. لا غرابة في امر تولية المنذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آكل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[3] : ولما انقضى امر كندة وسبي ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢١ (٢) وجد ذكر هذه الواقعة في اشعاره لفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦ — ١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر المستشرقين الثاني والعشرين تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها الملتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣ — ١٦٩

فارس ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنه عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر » . ونعلم ايضاً ان المنافسة بين الغساسنة والمناذرة على عرب الشمال كانت متأصلة في النفوس منذ حكم الكنديين وكان كل من الغسانيين والمناذرة ينازعون الكنديين هذا الحكم [١] . ولكن المشكل الوحيد الذي يقوم امامنا في رواية الطبري وابن الاثير قولهما المنذر بن النعمان ونحن نعلم ان ملك الحيرة كان المنذر بن امرىء القيس الثالث وهو المعروف بالمنذر بن ماء السماء وليس المنذر ابن النعمان . فيحل هذا المشكل رأيان اولهما ان المؤرخين الطبري وابن الاثير ذكرا سهواً المنذر بن النعمان بدل المنذر بن امرىء القيس وقد اشار الى هذا السهو كليمان هوارت اذ قال يسميه بعضهم غلطاً ابن امرىء القيس البدء وبعضهم ابن النعمان [٢] والرأي الثاني ان عميل كسرى في عمان والبحرين واليمامة والطائف كان احد اللخميين المسمى المنذر بن النعمان عرماروا المؤرخون العرب

ومن حوادث المنذر بن ماء السماء المشهورة عند العرب انهُ كان له ندمان من بني اسد وهما خالد بن فضلة وقيل ابن المضلل وعمر بن مسعود فسلا فراجما الملك ليله في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين فلما اصبح استدعاهما فأخبر بالذي امضاه فيهما فعمهُ ذلك وقصد حفرتهما وامر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان وقال ما انا بملك ان خالف الناس امري [٣] وسنّ ألا يمرّ بهما احدٌ الاّ سجد لهما وكان اذا سنّ الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكرها وجعلوها عليهم حكماً [٤] وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين ولبث بذلك برهة من دهره وسمى احد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيه ما ظهر له من انسان وغيره وسمّى الآخر يوم النعيم يحسن فيه الى كل من يلقى من الناس ويجملهم ويخلع عليهم فخرج يوماً من ايام بؤسه فطلع عليه عبيد بن الابرص الشاعر الاسدي وقد جاء ممتدحاً فلما نظر اليه قال هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد فقال عبيد اتتك بحائن رجلاه [٥] وبعد كلام طويل بين المنذر وعبيد نسب العرب اليه منشأ امثال كثيرة في لغة الضاد . وبعد ان انشد عبيد بعض الاشعار قال له المنذر يا عبيد لا بدّ من الموت وقد علمت ان النعمان [٦] ابني لو عرض لي يوم بؤسي لم اجد بُدّاً من ان اذبحه فاما ان كانت لك وكنت لها فاختر احدى ثلاث خلال ان شئت فسدتك من الآن وان شئت من الاجل وان شئت من الوريد فقال عبيد ابيت اللعن [٧] ثلاث خلال كلاهن احياناً وارداها شر وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد

(١) ازيدان : العرب قبل الاسلام ١ : ٢٠٧ ، ٢١٦ . Huart : His. des Arabes I : 87 ويدعوه الطبري ٢ : ٨٦ المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء وفي ٢ : ٩٤ قال نقلا عن ابن هشام وملك بعد ابي يعفر بن علقمة المنذر بن امرىء القيس البدء وهو ذو القرنين وامه ماء السماء (٣) معجم البلدان مادة « غري »
(٤) المسعودي مروج الذهب ٢ : ٥٢ تحل هذه الرواية على ان بؤس الملوك عندهم شرائع واجبة الطاعة
(٥) راجع مجمع الامثال للميداني ١ : ١٠٢ (٦) ان صح هذا القول كان المنذر بن ماء السماء ابن اسمه النعمان
(٧) تحية الملوك ومعناها لا تأت بما يستوجب اللوم واللعن

ان كنت لامحالة قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ماتت فظ مغاصني ودعلت منها دراهي فشأنك وما تريد من مقاتلي فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فلما احدثت منه وطابت نفسه وقدمه المنذر للقتل فقال:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه خلالاً أرى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها لذي خيرة انق
وسحائب ريح لم توكل ببلدة فتتركها الا كما ليلة الطلق

ثم امر به المنذر فقصد حتى نزف دمه فلما مات غرّى بدمه الغريين

وبقي المنذر[1] على تلك السنة حتى مرّ به في يعض ايام البؤس حنظلة بن ابي عفر فاستمهله في قتله سنة بكفالة شريك بن عمرو قاتله المنذر. ورجع حنظلة بعد سنة في آخر نهار الاجل المضروب ليتقدّ كفيله شريكاً من القتل فراح المنذر هذا الوفاء وسأل حنظلة عن سببه فاجابه حنظلة ابرّ بوعده لانه كان على دين النصرانية الذي يأمر بالوفاء فأثّر هذا الكلام في المنذر واكبر هذه الخلة الشريفة فتنصّر هو واهل الحيرة وابطل هذه السنّة الفاشية

وعلى ذكر تنصّر المنذر نقول ان امه كانت على النصرانية وهي ماوية الملقبة ماء السماء على اشهر الاقوال[2] الا انهُ تقلّب في اعتقاده بين وثنية عرب الجاهلية والمجوسية وقد ذهب بعضهم الى انهُ دان بالمزدكية[3] وكانت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسيحية وتسمى هند الكبرى وهي صاحبة الدير الذي باسمها وكانت قد كتبت عليه[4]

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر المذكة بنت الاملاك ولد الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افرام الاسقف . فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقوّمها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الذهر الداهر »

وتزوج المنذر بن ماء السماء بأخت زوجته هند ايضاً واسمها امامة. وولدت له كل منهما اولاداً. وكان له من هند ولد اسمه عمرو بن هند خلفه في الملك ومن امامة ولد عرف بعمرو ابن امامة[5]

ومن حروب المنذر بن ماء السماء حرب «يوم عين اباغ»[6] وكان سببها ان المنذر سار من الحيرة في بعض كلها وحدث ان نزل بعين اباغ بذات الحيار وأرسل الى الحرث الاعرج بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر الغسّاني ملك العرب بالشام[7] اما ان تصطبي العذبة فالصرف

(١) يسند بعض المؤرخين هذه الرواية الى النعمان الاول وروده غيرهم عن النعمان ابي قابوس ونقل الراي المرجح انه المنذر بن ماء السماء (٢) النصرانية وآدابها ٨٨ ـ ٣٠ (٣) كذلك . ولكن هذا القول يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من السبب لكيت كان امتناعه عن قبول المزدكية (٤) معجم البلدان مادة دير هند الكبرى (٥) معجم البلدان في المادتين (قصيب) و« مرجع ٤ (٦) الكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٢ وعين اباغ ليست بعين ماء وانما هو واد وراء الانبار على الفرات الى الشام. قال ياقوت في معجمه وكان صنماً في الجاهلية يوم مهم بين غسان ملوك الشام ومنوك لخم ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر ابن امرىء القيس العصي قلت والمشهور ان القتيل فيها المنذر بن امرىء القيس . (٧) وقيل ابو شمر عمرو ابن حجلة بن النعمان ابن الحرث الايهم ابن ماوية الغساني وقيل هو ازدي تغلب على غسان

عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب فارسل اليه الحرث انتظرنا ننظر في امرنا فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليه يقول له انا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك فعمد المنذر الى رجل من شجعان اصحابه فأمره ان يخرج فيقف بين الصفين ويظهر انهُ ابن المنذر فلما خرج اخرج اليه الحرث ابنه ابا كرب فلما رآه رجع الى ابيه وقال ان هذا ليس بابن المنذر انما هو عبده او بعض شجعان اصحابه فقال يا بني اجزعت من الموت ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليه وقاتله فقتله الفارس والقى رأسه بين يدي المنذر وعاد فأمر الحرث ابناً له آخر بقتاله والطلب بثأر اخيه فخرج اليه فلما وافقهُ رجع الى ابيه وقال يا ابت هذا عبد المنذر فقال يا بنيَّ ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليه فشدَّ عليه فقتله فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي وكانت امه غسانية وهو مع المنذر قال ايها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين فغضب المنذر وامر باخراجه فلحق بعسكر الحرث فأخبره فقال سل حاجتك فقال له خلتك وخلتك فلما كان الغد غدر الحرث اصحابه وحرضهم وكان في اربعين الفاً واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل المنذر وهزمت جيوشه

وفي رواية ان شمر بن عمرو الحنفي احد بني سحيم قتل المنذر غيلة وذلك ان الحرث ابن جبلة الغساني بعث الى المنذر بمئة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الامان على ان يخرج له من ملكه ويكون من قبله فركن المنذر الى ذلك وأقام الغلمان معهُ فاغتاله شمر بن عمرو فقتله [1] وجاء ان غسانا اسرت امرىء القيس بن المنذر يوم قتلت اياه فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرىء القيس بن المنذر واخذ عمرو ابن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون [2]

وقال ابن الاثير [3] بعد قتل المنذر آمر الحرث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين وجعل المنذر فوقهما فرداً وقال «بالعلاوة دون العدلين» فذهبت مثلاً وسار الى الحيرة فانهبها واحرقها ودفن ابنيه بها وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم الاَّ ان بعض المؤرخين يستبعدون ذهاب الحارث الغساني الى الحيرة ويستبعدون اكثر من دفن ابنيه وبناء الغريين عليهما

وفي يوم اباغ يقول ابن الرعلاء :

كم تركنا بالعين عين اباغ من ملوك وسوقة اكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى ان في الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء

ويظهر من مقارنة الحوادث ان موقعة يوم اباغ كانت سنة ٥٦٣ ميلادية

ومما يذكر عن المنذر بن ماء السماء انه اوفد وفداً على ابرهة بعد ان فتح الاحباش بلاد

(١) الاغاني ٩ : ١٧٢ (٢) كذلك ص٧٣ (٣) الكامل ١ : ٢٢٣

الحين[١] وينسب الى المنذر هذا بناء قصر الزوراء في رواية[٢]. ويقال انه كان يجير جاره شديد الشهامة عليه ومن ذلك ان ابا دواد الشاعر كان جاره . فنازع ابو دواد رجلاً بالحيرة من بهراء[٣] يقال له رقبة بن عامر فخرج ابو دواد بين له ثلاثة في تجارة إلى الشام فبعث رقبة الى قومه فقتلوهم فحبس المنذر ابا دواد وبعث كتيبتيه الدوسر والشهباء لمعاقبة المجرمين[٤]

ومن حديث الادباء ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس فخرج المنذر بردين يوماً يبلو الوفود وقال ليقم اعز العرب قبيلة فيأخذها فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذها وائتزر باحدها وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت اعز العرب قبيلة قال العز والعدد في معد[٥] ثم في نزار[٦] ثم في مضر[٧] ثم في خندف[٨] ثم في تميم[٩] ثم في سعد[١٠] ثم في كعب[١١] ثم في عوف[١٢] ثم في بهدلة[١٣] فمن انكر هذا فليناقرني فسكت الناس[١٤] ومما يذكر عن المنذر انهُ كانت له ابنة اسمها قاطمة كان يهواها المرقش الاصغر الشاعر وقال فيها الغزل[١٥]

وقد نسب العرب بعض الاقوال المأثورة الى المنذر بن ماء السماء ومنها : العز تحت ظلال السيوف . وحصون العرب الخيل والسلاح . والحرب سجال عثراتها لا تقال[١٦] ونسب اليه الميداني[١٧] المثل القائل « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » وذلك في حكاية طويلة يلخصها ان بني ضمرة بن جابر وقعوا في يد لقيط بن زرارة فاساء ولايتهم واهانهم فوسط بنو نهشل المنذر بن ماء السماء لاسترجاعهم من لقيط فاسترجعهم ودعاهم امامه وكان يعجبه ما يسمعه عن خلال شفة بن ضمرة ولم يكن منظره يرضيه فقال له « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فاجابه شفة أبيت اللعن واسعدك الملك ان القوم ليسموا بجزر يعني الشاء « يعيش الرجل بأصغريه لسانه وقلبه»[١٨]. وجاء ذكر المنذر في كثير من اشعار عرب الجاهلية الذين عاصروه[١٩] وقصارى القول ان المنذر بن ماء السماء من اشهر ملوك الحيرة[٢٠]

---

(١) زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٥٩ و ٢٠٧ (٢) كذلك ص ١٥٩ (٣) بهراء بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة (٤) الميداني مجمع الامثال ١ : ٣١ في تفسير المثل (انا النذير العريان) (٥) معد بطن من عدنان وقيل هو بطن متسع وهم اصل جميع بني عدنان (٦) بنو نزار بطن من عدنان وهم بنو نزار بن معد بن عدنان

(٧) مضر قبيلة من العدنانية وهم بنو مضر بن معد بن عدنان (٨) بنو خندف بطن من مضر من العدنانية وهم بنو الياس بن مضر . وخندف اسم امرأة الياس عرف بنوه بها (٩) بنو تميم من طابخة وهو من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن ادبن طابخة وكانت منازلهم ارض نجد . ونزلوا من هنالك على البصرة واليمامة وامتدت الى القرى من ارض الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر (١٠) بنو سعد بطن من تميم (١١) كعب بطن من تميم من العدنانية وهم بنو سعد بن زيد مناة (١٢) عوف بطن من تميم من العدنانية وهم بنو عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة كان له من الولد عطارد وبهلة وغيرهما (١٣) بطن من تميم وهم بنو بهلة بن عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم (١٤) شعراء النصرانية ١٣٣ (١٥) الاغاني ٥ : ١٧٩ (١٦) الاعلم ابو منصور الثعالبي النيسابوري : الاجاز والاعجاز ص ١٥ (١٧) مجمع الامثال ١ : ٨٧ (١٨) كذلك ٢ : ٢٥٣ (١٩) كتاب تس ليز : المقتطف فبراير ١٩١٤ (٢٠) استلخ هذا المقال من كتابنا المخطوط « الحيرة: المدينة والمملكة العربية » . راجع مقتطف اكتوبر ونوفمبر ودسمبر ١٩٣٢